كتاب "البديع"

وأثره في الدراسات البلاغية

بقلم

الدكتور الشيخ محمد عبد الرحمن أبو ستيت

المدرس بقسم البلاغة و النقد

تقـــديم :

يمثل كتاب « البديع » « لابن المعتز » بداية مرحلة جديدة فى تاريخ البيان العربى ، يمكن أن نسميها : مرحلة الدراسات المنهجية .

فقد اتبع فيه مؤلفه منهجاً محدد الخطوات، واضح المعالم ، على خلاف ما نلحظ فى جل ما سبقه من مؤلفات فى هذا الميدان .

ومن ثم كان لهذا الكتاب قيمة كبيرة فى تاريخ البلاغة العربية ، وبرز أثره جليا فى المؤلفات التى كتبت من بعده، واتكأ عليه عدد غير قليل من أعلام المؤلفين فى الدراسات البلاغية .

وهذا البحث يتناول كتاب « البديع » بالدراسة والتحليل ، ويكشف عن الروافد التى أمدته ، والرياض التى استقت منه ، ويفند ماوجه إليه من تهم ، وما أثير حوله من شبهات .

لذا فهو ينقسم قسمين :

الأول : دراسة كتاب « البديع » .

والثانى : بين التأثر والتأثير .

ونبدأ — بعون الله وتوفيقه — فى خوض غمار البحث .

أولا : دراسة كتاب « البديع » .

* * *

مؤلف الكتاب :

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن المعتز بالله ، بن المتوكل على الله ، بن محمد المعتصم ، بن هارون الرشيد .... وينتهى نسبه إلى العباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، ولد على أرجح الآراء فى شعبان سنة ٢٤٧هـ — نوفمبر سنة ٨٦١ م، وتولى تربية أبناء الخلفاء ، وتأدب على أشهر علماء عصره، كثعلب ، والمبرد ، وابن هبيرة ، وغيرهم .

ومال منذ صغره إلى الشعر والأدب ، وظل يحيا فى ظلهما بعيدا عن صراعات السياسة حتى نبغ فيهما نبوغا منقطع النظير .

ويصف ابن المعتز «نفسه فى بعده عن السياسة ، وجنوحه إلى الملذات» فيقول(١) :

قليل هموم القلب إلا لـلذة ... ينعم نفسا آذنت بالتنقـل
فإن تطلبه تقتنصه بحـانة ... وإلا ببستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلا عن خليفة ... ولا قائلا من يعزلون ومن يلى
ولا صائحـا كالعير فى يوم لذة ... يغاظر فى تفضيل عثمان أو على

ومع هذا فقد جاءته الأقدار بما لم يكن فى الحسبان ، ففى سنة ٢٩٦ هـ اجتمع جماعة من القواد عـلى خلع « المقتدر » وتولية « ابن المعتز » مقاليد الخلافة ، وبويع بها يوم السبت ٢٠ من ربيع الأول ، وصلى بالناس الصبح يوم الأحد ، وفجأة تبدلت الأمور ، وأفرج عن «المقتدر» ، وانفض أنصار « ابن المعتز » من حوله ، فقبض عليه ، ولقى حتفه ، ولما يهنأ بعرش الخلافة .

---

(١) تاريخ الأدب العربى : ٣١٨

وقد رثاه كثير من الشعراء ، وقال فيه «ابن بسام»(١) :

لله درك من مـلك بمضيعـة
ناهيك فى العلم والآداب والحسب

ما فيـه لولا ولا ليت فتنقصه
وإنمـا أدركتـه حـــرفة الأدب

نعم أدركته حرفة الأدب ، فقتل بائسا ، لم يتمتع بأبهة الملك ، وعند التحقيق نرى أن الخلافة قد أسقطته وأردته ، بينما أعلاه الأدب ، وأحيا ذكره ، ما بقى فى الناس مطالع للآداب ، ودارس للعلوم .

وترك «ابن المعتز» مؤلفات جليلة ، تزهو بها رياض العلم ، ويعتز بها العلماء ، وقد ذكر أستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى فى كتاب «ابن المعتز وتراثه» مؤلفاته وهى :

١ — كتاب البديع .
٢ — الزهر والرياض .
٣ — مكاتبات الإخوان بالشعر .
٤ — الجوارح والصيد .
٥ — السرقات .
٦ — أشعار الملوك .
٧ — الآداب .
٨ — حلى الأخبار .
٩ — طبقات الشعراء .

---

(١) ابن المعتز العباسى : ٢٤٥

١٠ — الجامع فى الغناء .

١١ — أرجوزة فى ذم الصبوح .

١٢ — ديوان شعر كبير .

و كثير من هذه الكتب مفقود ، ومانشر منها يشهد ببراعة «ابن المعتز» وسعة ثقافته ، وعلمه الغزير ، فرحمه الله رحمة واسعة بما قدم للعلم والعلماء .

التعريف بالكتاب :

كتاب « البديع » لابن المعتز من أهم كتب التراث فى البيان والنقد ، وقد ألفه « ابن المعتز » سنة ٢٧٤ هـ ، وذكر ذلك فى الكتاب ، فقال : وما جمع فنون البديع ، ولا سبقنى إليه أحد ، وألفته سنة أربع وسبعين ومائتين وأول من نسخه منى على بن هارون بن يحيى بن أبى المنصور(١) .

وقد نشره المستشرق الروسى «أغناطيوس كرتشكوفسكى» سنة ١٩٣٥م معتمدا على النسخة المخطوطة الوحيدة الموجودة فى مكتبة «الاسكوريال» .

ثم نشره بعد ذلك الأستاذ الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى سنة ١٩٤٥ ، وقد صحح كثيرا من أخطائه وشرح ما فيه من أبيات .

---

(١) البديع : ٥٨

سبب تأليفه :

« ذكر ابن المعتز » فى مقدمة كتابه دوافع تأليفه ، فقال : قد قدمنا فى أبواب كتابنا هذا بعض ماوجدنا فى القرآن ، واللغة ، وأحاديث رسول الله ﷺ وكلام الصحابة ، والأعراب ، وغيرهم ، وأشعار المتقدمين ، من الكلام الذى سماه المحدثون «البديع» ليعلم أن بشاراً ، ومسلماً ، وأبانواس ، ومن تقيلهم وسلك سبيلهم ، لم يسبقوا إلى هذا الفن ، ولكنه كثر فى أشعارهم ، فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه .

ثم إن حبيب بن أوس الطائى من بعدهم شغف به حتى غلب عليه ، وتفرع فيه ، وأكثر منه ، فأحسن فى بعض ذلك ، وأساء فى بعض . وتلك عقبى الإفراط ، وثمرة الإسراف ، وإنما كان يقول الشاعر من هذا الفن البيت والبيتين فى القصيدة ، وربما قرأت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع ، وكان يستحسن ذلك منهم إذا أتى نادراً ، ويزداد حظوة بين الكلام المرسل(١) .

ففى هذا النص يكشف « ابن المعتز » عن سبب تأليفه كتاب «البديع» ، ففى عصره احتدمت المعارك الأدبية بين المحافظين على عمود الشعر من اللغويين والرواة ، وبين المحدثين من الشعراء .

فالمحافظون ينافحون عن منهج الشعر القديم ، ويرون أن الشعر يجب ألا يخرج عنه ، ويتهمون بشاراً ومسلماً وغيرهما بإفساد الشعر .

والمحدثون يذهبون إلى التأنق فى الصياغة ، والغوص وراء المعانى ، وتوشية القصائد بحلى البديع ، ويرون أن هذا أقوم طريق .

---

(١) السابق : ١

وفى خضم هذه الخصومات الأدبية ، ألف « ابن المعتز » كتابه ليدلل على أن البديع موجود فى القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام العرب ، وأشعارهم ، وأن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى فنونه ، ولكنهم عنوا به ، وأكثروا منه فى أشعارهم حتى عرفوا به ، وأسرف بعضهم فى استعماله حتى أساء فى بعض شعره ، واكتنف بعض شعره الغموض .

ويزيد « ابن المعتز » الأمر وضوحاً حين يصرح بهذا السبب مرة أخرى بعد قليل من كلامه السابق ، فيقول : وإنما غرضنا تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع »(١) .

ويرى أستاذنا الدكتور أحمد موسى أن « ابن المعتز » ألف كتابه مناقحة عن المحدثين ، واحتجاجاً للبديعيين ، لأنه من أعلام الصنعة البديعية ، وكان فى سلك الذين رماهم علماء اللغة بإفساد الشعر ، والخروج به عن مألوفه ومعتاده ، وإثقاله بالحلى التى تسلمه من التكلف والتعقيد(٢) .

بينما يرى الدكتور شوقى ضيف أن « ابن المعتز » ألف كتابه ليثبت أن المحدثين لم يخترعوا البديع ، الذى يلهجون به ، وكأنه يرد حقاً مسلوباً للشعراء الأقدمين الذين ادعى المحدثون أنهم قد اخترعوا البديع دونهم ، ولم يسم « ابن المعتز » من ادعى ذلك وغمط العرب حقهم ، وأنكر عليهم كل فضل ، ولكنه تصدى لمن ادعوا ذلك ، لينقض دعواهم الباطلة ، مبيناً بالبرهان الساطع أن البديع قديم فى العربية »(٣) .

وكلام أبى هلال يؤيد ماذهب إليه الدكتور شوقى ضيف إذ يقول

---

(١) البديع : ٣

(٢) الصبغ البديعى : ١٢٩

(٣) البلاغة تطور وتاريخ : ٦٧

بعد أن عدد ألوان البديع : فهـذه أنواع البديع التى ادعى من لا روية ولا رواية عنده أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين ، لأن هذا النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبرىء من العيوب ، كان فى غاية الحسن ونهاية الجودة »(١) .

وأرى أن « كلام « ابن المعتز » يحتمل التفسيرين ، ولامانع من أن يكون قد أراد أن يدلل على أصالة البديع فى اللغة العربية . ويثبت أنه فن قديم من فنون القول فيها ، فى الوقت الذى قصـــد أن يبين أن المحدثين لم يخرجوا بسبب البديع عن عمود الشعر العربى ، وإنما كان ذلك بسبب إكثارهم منه ، وغرامهم به إلى درجة التكلف والتعقيد .

منهج الكتاب :

سار « ابن المعتز » فى كتاب « البديع » على منهج دقيق ، يدل على عقل فذ ، ونظر ثاقب ، وقد بدأ كتابه بمقدمة شرح فيها الدوافع التى جعلته ينهض لتأليف كتابه . وبين أنه سيتحدث عن فنون البديع كما يراها قاصداً من ذلك تعريف الناس بقدم البديع ، فليس لأحد أن يعيب عليه اقتصاره على بعض الفنون ، ففى دون ماذكره مايوفى بالغاية التى قصدها(٢) .

ويؤكد على أنه لم يقتصر على هذه الفنون لجهل أو ضيق معرفة ، فيقول : بعد أن انتهى من فنون البديع : ونحن الآن نذكر بعض محاسن الكلام والشعر ومحاسنها كثيرة . . . وأحببنا لذلك أن تكثر فوائد

---

(١) الصناعتين : ٢٠٤

(٢) البديع : ٣

كتابنا للمتأدبين، ويعلم الناظر أنا اقتصرنا بالبديع على الفنون الخمسة اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق فى المعرفة(١) .

وقسم « ابن المعتز » كتابه قسمين :

الأول : البديع ، وهو القسم الأكبر فى كتابه ، وبحث فيه خمسة أبواب هى : الاستعارة ، والتجنيس ، والمطابقة ، ورد الأعجاز على ماتقدمها ، والمذهب الكلامى .

والثانى : محاسن الكلام والشعر ، وتحدث عن ثلاثة عشر لوناً منها هى : الالتفات ، والاعتراض ، والرجوع ، والخروج من معنى إلى معنى ، وتأكيد المدح بمايشبه الذم : وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجد ، وحسن التضمين ، والتعريض والكناية ، والإفراط فى الصفة ، وحسن التشبيه ، وإعنات الشاعر نفسه فى القوافى ، وحسن الابتداءات .

والتزم « ابن المعتز » فى دراسة أبواب البديع بمنهج فريد ، فنراه يعرف اللون البديعى ثم يسوق له الأمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام الصحابة ، وكلام العرب ، ثم ينتقل ليضرب الأمثلة من الشعر القديم ، ويعقبه بذكر أمثلة من شعر المحدثين .

وبعد أن يذكر العدد الوفير من الأمثلة الجيدة يأخذ فى ضرب الأمثلة المعيبة ، التى لم تستوف شروط الحسن .

ولقد أكثر « ابن المعتز » من ضرب الأمثلة الجيدة فى كتابه ، وكأنه يريد أن يضع بين يدى الناشئين زاداً يمدهم بمقومات الصنعة الجيدة ، التى

---

(١) البديع : ٥٨

أباحها الذوق العربى ، ويعصمهم من الوقوع فى التكلف الذى يهبط بأشعارهم إلى درجة القبح(١) .

وتظهر شخصية « ابن المعتز » فى كتابه كأديب بارع ، وشاعر ذواقة ، وناقد خبير ، يتقن التمييز بين جيد الكلام ورديئه .

وسنتناول موضوعات الكتاب بالدراسة والتحليل ، لنبين طريقة « ابن المعتز » فى تناولها ، ونقف على جهوده فى إبراز معالمها ، وإيضاح مسائلها ، وفرضح أثره الكبير فى تطور البلاغة العربية .

ونبدأ بالقسم الأول وهو أبواب البديع .

١ — الاستعارة :

هى أول أبواب « البديع » التى بحثها « ابن المعتز » فى كتابه ، وكأنه بهذا يجعلها فى مقدمة ألوان البديع أهمية ، نظراً لجريانها على ألسنة العرب ، وشيوعها فى شعرهم ونثرهم ، وتأثيرها القوى فى أداء المعانى ، وروعة الأساليب .

وقد عرفها ، وضرب لها أمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام الصحابة رضى الله عنهم ، وكلام غيرهم من فصحاء العرب قدماء ومحدثين ، ثم ذكر لها أمثلة من جيد الشعر فى عصوره المختلفة : الجاهلى ، والإسلامى ، والعباسى ، ثم ختم حديثه عنها بذكر أمثلة للاستعارات القبيحة فى الشعر والنثر .

وفى خلال رحلته مع أمثلة الاستعارة أشار بلطف إلى بعض مسائلها كما يتضح فيما يلى :

---

(١) الصبغ البديعى : ١٣٠

(أ) تعريف الاستعارة :

عرف « ابن المعتز » **الاستعارة** بأنها : استعارة الكلمة لشيء لم يعرف بها من شيء قد عرف بها(١)

وليس هذا أول تعريف وجد فى آثار العلماء ، فقد سبق « الجاحظ » و « ابن قتيبة » و « ثعلب » إلى تعريفها .

فهى عند الجاحظ : تسمية الشيء باسم غيره إذا قام مقامه(١)

وهى عند ابن قتيبة : وضع الكلمة مكان الكلمة ، إذا كان المسمى بها بسبب من الأخرى ، أو مجاورا لها ، أو مشاكلا(٢)

وهى عند ثعلب : أن يستعار للشيء اسم غيره ، أو معنى سواه(٣)

وبالنظر فى هذه التعاريف نرى أنها تتسم بالبساطة ، وتفتقر إلى الدقة المطلوبة فى التعريف ليكون جامعا مانعا ، ولكنها — على كل الأحوال — تمثل مرحلة أولية من مراحل الفكر البلاغى ، لها أهميتها فى بناء صرح علوم البلاغة .

---

(١) البديع :

(٢) البيان والتبيين : ١ / ١٥٣

(٣) تأويل مشكل القرآن : ١٣٥

(٤) قواعد الشعر : ٢١

(ب) قرينة الاستعارة :

لم يشر ابن المعتز صراحة إلى قرينة الاستعارة ، ولكننا نلمح فى تعليقه على بعض الأمثلة مايومىء إليها ، إذ يقول : ومن الاستعارة قول امرىء القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بأنواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه وأردف أعجازا وناء بكلكل

هذا كله من الاستعارة ، لأن الليل لاصلب له ولا عجز(١)

فقد أشار إلى الاستعارة فى الصلب ، والعجز ، والكلكل ، وبين أن هذه الألفاظ إنما كانت من قبيل الاستعارة ، لأن الليل لاصلب له ولاعجز ، وهذا توضيح للقرينة التى عرفت عند البلاغيين بعد ذلك .

(ج) بيان أصل الاستعارة :

وبين « ابن المعتز » — فى بعض الأمثلة — المعنى الحقيقى الذى أخذت منه الاستعارة ، ففى قول النابغة الذبيانى :

وصدر أراح الليل عازب همه
تضاعف فيه الحزن من كل جانب

يقول : أراح الليل عازب همه ، هذا مستعار من إراحة الراعى الإبل إلى مباءتها ، أى موضع تأوى إليه(٢)

---

(١) البديع : ٧ (٢) السابق : ٨

وفى بعض الأمثلة أشار إلى المعنى المجازى ، والمعنى الحقيقى وشرح اللفظ المستعار ففى قول الشاعر :

إذا لقحت حرب عوان مضرة
ضروس تهر الناس أنيابها عصل

يقول : تهر : أى تحملهم على أن يكرهوا ، يقال : هرفلان كذا :إذا كرهه ، وأهررته أنا : حملته عليه ، وهرير الكلب : صوت يردده إلى جوفه إذا كره الشىء ، أو الشتاء لشدة البرد أو لغيره(١)

(د) أمثلة من جيد الاستعارات :

ساق ابن المعتز أمثلة كثيرة للاستعارة ، من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وكلام الصحابة رضى الله عنهم ، وكلام غيرهم من فصحاء العرب قدماء ومحدثين ، ثم ذكر أمثلة من جيد الشعر فى عصوره المختلفة ، الجاهلى والإسلامى ، والأموى ، والعباسى .

فمن الاستعارات القرآنية ، قوله تعالى :(هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب)(٢) . وقوله تعالى : (واخفض لهما جناح الذل من الرحمة)(٣) ، وقوله تعالى : (واشتعل الرأس شيبا)(٤)

ولم يعلق ابن المعتز على هذه الشواهد بشىء ، ومعلوم أن الاستعارة فى الآية الأولى فى لفظ « أم » ، وفى الثانية « جناح » ، وفى الثالثة فى لفظ « اشتعل » .

---

(١) السابق : ٧
(٢) آل عمران : ٧
(٣) الإسراء : ٢٤
(٤) مريم : ٤

ومن الاستعارات النبوية قوله ﷺ : خير الناس رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله . كلما سمع هيعة طار إليها »(١)

والاستعارة فى الحديث فى لفظ « طار » وقد استعيرت للسرعة .

ومن الاستعارة فى كلام الصحابة ، قول على بن أبى طالب فى كتاب إلى ابن عباس وهو عامله على البصرة : أرغب راغبهم ، واحلل عقد الخوف عنهم(٢)

والاستعارة فى هذا القول فى لفظ « عقد »

ومن الاستعارة فى كلام غيرهم ، ماجاء فى قول الحجاج : دلونى على رجل سمين الأمانة(٣) .

وفيما روى عن المأمون من أنه رأى بعض ولده وفى يده دفتر ، فقال ماهذا يابنى ؟ فقال : بعض مايشحذ الفطنة ، ويؤنس فى الوحدة ، فقال : المأمون : الحمد لله الذى أرانى من ذريتى من ينظر بعين عقله(٤)

والاستعارة فى قول الحجاج فى لفظ « سمين » وفى قصة المأمون فى لفظى : يشحذ : وعين .

وذكر ابن المعتز للاستعارة نماذج كثيرة من الشعر ، ومما ذكره قول زهير :(٥)

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

---

(١) البديع : ٣
(٢) السابق : ٤
(٣) السابق : ٦
(٤) السابق : ١٢
(٥) السابق : ٨

وقول لبيد .(١)

وغداة ريح قد كشفت وقرة
إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وهما من أشهر أمثلة الاستعارة المكنية فى كتب البلاغيين .

ومن الأمثلة قول أبى نواس :(٢)

صهباء تفترس العقول فما ترى
منها بهن سوى السبات جراحا

والاستعارة فى لفظ « تفترس ».

وقول العباس بن الأحنف :(٣)

قد سحب الناس أذيال الظنون بنا
وفرق الناس فينا قولهم فرقا

والاستعارة فى لفظ « أذيال » .

وغير ذلك من شعر مسلم بن الوليد ، وأبى العتاهية ، وأبى تمام وغيرهم ،

ولقد أفاض ابن المعتز فى التمثيل للاستعارة . وضرب لها أكثر من ثمانين مثالا من الشعر ، غير ماذكره من القرآن الكريم ، والحديث الشريف وأقوال الصحابة ، وفصحاء العرب .

والناظر فى أمثلته يجد أكثرها من الاستعارة المكنية ، ولعل هذا يرجع

---

(١) السابق : ١١
(٢) السابق : ١٦
(٣) السابق : ١٩

إلى أن هذا اللون من الاستعارة كان موضع نقاش بين المحافظين والمجددين في هذا الوقت ، ويؤيد هذا أن نقد الآمدي لاستعارات أبي تمام كان منصبا على كثرة ما يورده من الاستعارات المكنية في شعره(١) .

(هـ) الاستعارة المعيبة :

وساق ابن المعتز أمثلة من الاستعارات المعيبة ، ختم بها حديثه عن الاستعارة ، وبين أنه سيكتفي بذكر القليل من الأمثلة ، ليعرفها المنقشون ويحترزون من الوقوع في أمثالها، فقال : وهذا وأمثاله من الاستعارة ، مما عيب من الشعر والكلام ، وإنما نخبر بالقليل ليعرف فيتجنب(٢) .

وذكر أمثلة منها :

قال المهلب لرجل من الأزد : متى أنت ؟ قال : أكلت من حياة رسول الله ﷺ سنتين ، فقال : أطعمك الله لحمك(٣) .

فقول الأزدي : « أكلت » إستعارة قبيحة ، لعدم ملاءمتها للحياة ، ولخروج التعبير عن أدب الحديث عن رسول الله ﷺ .

وقال عبيد الله بن زياد لسويد بن منجوف : أقعد على است الأرض، فقال سويد : ما أعلم للأرض استا(٤) .

فاستعارة الاست لظهر الأرض إستعارة معيبة ، ولذلك رد سويد ، على « عبيد » بعبارة كلها تعجب وإستهزاء .

---

(١) البلاغة تطور وتاريخ : ٧٠ وينظر الموازنة ١/٢٦١

(٢) ، (٣) ، (٤) السابق : ٢٣

وقال أبو تمام(١) :

فضربت الشتاء فى أخدعيه ضربة غادرته عودا ركوبا

والاستعارة فى هذا البيت فى لفظ « أخدعيه » . والأخدعان عرقان فى العنق ، والشاعر حينما جعل للشتاء أخدعين ، على سبيل الاستعارة . جاءت فى غاية القبح ، وقد وقف الإمام عبد القاهر عند هذه الاستعارة فى بيت آخر لأبى تمام وهو :

يا دهر قوم من أخدعيك فقـــد
أضججت هـذا الأنام من خرقك

وبين قبحها ، وثقلها على النفس(٢) .

ومن قبله وقف الآمدى عند البيتين وغيرهما منبها على فساد الاستعارة وقبحها(٣) .

وحديث ابن المعتز عن الاستعارات المعيبة ، قد فتح الباب أمام البلاغيين لتفصيل هذا الموضوع ، وبيان مختلف جوانبه .

٣ — التجنيس :

وهو الباب الثانى من « البديع » عند ابن المعتز ، وقد عرفه ، وبين أقسامه ، وضرب له أمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وكلام الفصحاء ، والشعر ، وختم حديثه عنه بذكر نماذج للمعيب منه .

---

(١) السابق ٢٣
(٢) ينظر دلائل الإعجاز ٤٧
(٣) الموازنة ١/٢٦١

(ا) تعريفه :

قال ابن المعتز : التجنيس : أن تجيء الكلمة تجانس أخرى فى بيت شعر و كلام ، وشرح معنى المجانسة فقال : ومجانستها لها أن تشبهها فى تأليف حروفها ، على السبيل الذى ألف الأصمعى كتاب الأجناس عليها(١) . . .

فقد عرف التجنيس ، وشرح معنى المجانسة ،وأشار إلى كتاب الأصمعى الذى ألفه فى ذلك ، كما اشتشهد بكلام الخليل بن أحمد فى هذا الموضوع(٢).

(ب) أقسامه :

وبين أن التجنيس على قسمين(٣) :

الأول : ما تكون الكلمة تجانس أخرى فى تأليف حروفها ،ومعناها، ويشتق منها ، مثل قول أبى يعقوب الخريمى :

يوم خلجت على الخليج نفوسهم عصبا وأنت بمثلها مستام

والثانى : أن تجانسها فى تأليف الحروف دون المعنى ، كقول مسلم ابن الوليد :

يا صاح إن أخاك الصب مهموم فارفق به إن لوم العاشق اللوم

وبالتأمل فى هذين القسمين نرى أنهما بحثا عند المتأخرين فى الملحق بالجناس لا فى الجناس ، والأول منهما يقوم على اجتماع اللفظين فى الاشتقاق ، والثانى يقوم على اجتماعهما فيما يشبه الاشتقاق(٤) .

---

(١) ، (٢) ، (٣) البديع ٢٥

(٤) ينظر مفتاح العلوم ٢٠٣ ، وبغية الإيضاح ٤/٨٥

فهذا التقسيم غير دقيق ، ولا يمثل التقسيم الصحيح للتجنيس ، وهذا لا يغض من مكانة ابن المعتز ، ولا ينقص من قدره ، فهو رائد كفاه أن أوضح معالم الطريق .

(ج) مع الأمثلة :

وساق ابن المعتز أمثلة كثيرة للتجنيس منها ما يدخل تحت تقسيمه ، مثل قوله تعالى(١) :(وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين)، وقوله تعالى(٢) : (فأقم وجهك للدين القيم) ، وقوله ﷺ(٣) : « الظلم ظلمات يوم القيامة »(٤) .

ومنها ما يدخل تحت أقسام أخرى ذكرها البلاغيون بعد استواء المباحث البلاغية ، كالجناس التام المستوفى فى قول محمد بن كناسة(٥) :

وسميته يحي ليحيا فلم يكن إلى رد أمر الله فيه سبيل

والجناس المحرف فى قول العبس(٦) :

وذاكم أن ذل الجار حافكم وأن أنفسكم لا يعرف الأنفا

والجناس الناقص المطرف فى قول البحترى(٧) :

لولا على بن مر لاستمر بنا خلق من العيش فيه الصاب والصبر

---

(١) النمل : ٤٤
(٢) الروم : ٤٣
(٣) رواه مسلم
(٤) البديع : ٢٥
(٥) البديع : ٢٦
(٦) السابق : ٢٧
(٧) السابق : ٣٣

والجناس الناقص المذيل ، فى قول حيان بن ربيعة(١) :

لقد علم القبائل أن قومى لهم حد إذا لبس الحديد

وجناس القلب ، فى قول معاوية لابن عباس(٢) : مالكم يا بنى هاشم تصابون فى أبصاركم كما تصابون فى بصائركم .

ووقف ابن المعتز عند بعض الأمثلة مشيرا إلى التجنيس فيها ، ففى أبيات سعيد بن حميد :

طلعت أوائل للرياض فبشرت نور الربيع بجدة وشباب

وغدا السحاب يكاد يسحب فى الربى

أذيال أسحم حالك الجلباب

. . . . .

يقول : أردنا قوله : وغداً السحاب يكاد يسحب(٣) .

وهذا التجنيس من اللون اللون الأول الذى عرف فيما بعد بجناس الاشتقاق .

وقد يأتى فى البيت تجنيس وإستعارة ، فنراه يشير إلى ذلك ، ففى قول عمارة بن عقيل :

وعلا اغاط فبات يلغط سيله ويعج فى ابب الرغام ويصخب

يقول : جمع فى هذا البيت التجنيس والاستعارة(٤) .

---

(١) السابق : ٢٧

(٢) السابق : ٢٥

(٣) ، (٤) السابق : ٣٠

ويعجب ابن المعتز ببعض الأبيات ، فيحكم عليها بأنها من الأبيات الملاح ، فى قول أبى تمام :

سعدت غربة النوى بسعاد فهى طوع الإتهام والإنجاد

يقول : وهذا من الأبيات الملاح(١) :

وهذا البيت مطلع قصيدة لأبى تمام ، والجناس فيه بين : سعد ، وسعاد ، وقد حكم عليه أبو هلال بحكم ابن المعتز فقال : وهذا من الإبتداءات المليحة(٢) .

ومثل ابن المعتز للتجنيس ببعض شعره ، فقال : وقلت :

يا دار أين ظباؤك اللعس قد كان لى فى إنسها أنس
أين البدور على غصون نقاً من تحتهن خلاخل خرس(٣)

وهو يقصد التجنيس بين : إنس ، أنس ، فى البيت الأول ، وهذا اللون من الجناس يعرف عند المتأخرين بالجناس المحرف ، وفيه يختلف اللفظان فى شكل الحروف .

(د) التجنيس المعيب :

ساق ابن المعتز أمثلة للتجنيس المعيب من ذلك(٤) : قول منصور بن الفرج :

---

(١) السابق ٢٩
(٢) الصناعتين ٢٧٧
(٣) البديع ٣٢
(٤) السابق ٣٤ ، ٣٥

أكابد منـــك أليم الألم فقد أنحل الجسم بعد الجسم

وقول أبي تمام :

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

وقول البهروى :

ولو رأى هرم معشار فائله لقيل فى هرم قد جن أو هرما

ولم يبين ابن المعتز سبب قبح هذه التجنيسات وغيرها مما ذكره ، والذى يظهر لنا من التأمل فيها ، أنها قد جاءت متكلفة مصنوعة ، وقد عنى فيها بتجانس الألفاظ دون إضافة معان جديدة ، فهى لا تزيدنا إلا سماع حروف مكررة تصك الآذان ولا تغنى العقل .

وقد أشار ابن المعتز إلى بعض التجنيسات التى جاءت غير متكلفة ، ولا مقصودة فقال : سئل عبد الله بن إدريس عن النبيذ ، فقال: جل أمره عن المسألة : أجمع أهل الحرمين على تحريمه ، ولم يقصده فيما أظن ، ولكن كما تهيأ له فى الـكلام(١) .

ويفهم من تعليقه على هذا المثال أنه معجب به نظراً لمجيئه من غير قصد ولا تصنع ، وهذا ما يجب أن تـكون عليه الألوان البديعية .

وقد فصل الإمام عبد القاهر هذا الموضوع وساق بيت أبي تمام وبين سبب قبح التجنيس فيه ، فقال :

أما التجنيس ، فإنك لا تستحسن تجانس اللفظتين إلا إذا كان موقع معنييهما من العقل موقعا حميداً ، ولم يكن مرمى الجامع بينهما مرمى بعيداً ، أتراك استضعفت تجنيس أبي تمام فى قوله :

---

(١) البديع ٣٤

ذهبت بمذهبه السماحة فالتوت فيه الظنون أمذهب أم مذهب

واستحسنت تجنيس القائل :

حتى نجا من خوفه وما نجا

وقول المحدث :

ناظراه فيما جنى ناظـراه أو دعانى أمت بما أودعانى

لأمر يرجع إلى اللفظ ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضعفت عن الأول ، وقويت فى الثانى ؟ ورأيتك لم يزدك بمذهب ومذهب على أن أسمعك حروفا مكررة ، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا منكرة ، ورأيت الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها ، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفاها ، فبهذه السريرة صار التجنيس وخصوصا المستوفى منه المتفق فى الصورة ، من حلى الشعر ، ومذكورا فى أقسام البديع »(١) .

فقد بين الإمام أن التجنيس لا يكون حسنا إلا إذا أضاف فائدة ، وحقق معنى يمتع الحس ويغنى العقل ، وأنه يعاب حينما يأتى مصنوعا من أجل إيجاد تجانس لفظى ، دون نظر إلى معنى مستفاد منه .

وقد أكد ذلك أتم تأكيد فقال بعد الكلام السابق : فقد تبين لك أن ما يعطى التجنيس من الفضيلة أمر لا يتم إلا بنصرة المعنى ، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن ، ولما وجد فيه إلا معجب مستهجن ولذلك ذم الاستكثار منه والولوع به ، وذلك أن المعانى لا تدين فى كل موضع لما يجذبها التجنيس إليه ، إذ الألفاظ خدم المعانى ، والمعرفة فى حكمها ، وكانت المعانى هى المالكة سياستها ، المستحقة طاعتها ، فمن نصر

---

(١) أسرار البلاغة ١/٩٩ ، ١٠٠ — وينظر دلائل الإعجاز ٣ ٧

اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن جهته ، وأحاله عن طبيعته ، وذلك مظنة الاستكراه ، وفيه فتح أبواب العيب والتعرض للشين »(١).

٣ — المطابقة :

والباب الثالث من أبواب البديع عند ابن المعتز هو المطابقة ، وقد بدأ الحديث عنه بالإشارة إلى كلام الخليل والأصمعى فى معنى المطابقة ، فقال: قال الخليل رحمه الله: يقال : طابقت بين الشيئين ، إذا جمعتهما على حذو واحد ، و كذلك قال أبو سعيد(٢) .

ثم ذكر مثالا للمطابقة مبينا موضعها ، فقال : فالقائل لصاحبه : أتيناك لتسلك بنا سبيل التوسع ، فأدخلتنا فى ضيق الضمان ، قد طابق بين السعة والضيق فى هذا الخطاب(٣) .

ويفهم من هذا الكلام أنه يشير إلى مفهوم المطابقة بأنها الجمع بين المعنى وضده ، وليس المقصود بها جمع أى كلامين .

ويفهم هذا من تحليله لمثال آخر حيث يقول : قال عيسى بن طلحة لعروة بن الزبير حين ابتلى فى رجله : إن ذهب أهونك علينا ، فقد بقى أعزك علينا ، فطابق كما ترى بين العز والهوان(٤) .

---

(١) أسرار البلاغة ١/١٠٠

(٢،٣،٤) البديع : ٣٦

مع أمثلة المطابقة :

ضرب ابن المعتز أمثلة للمطابقة من القرآن والحديث والنثر والشعر ، فمن القرآن الكريم قوله تعالى(١) : « ولكم فى القصاص حياة »(٢) ، ومن الحديث الشريف قوله ﷺ للأنصار : « إنكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع »(٣) .

وواضح أن الطباق فى الآية الكريمة بين قصاص وحياة، وفى الحديث الشريف بين تكثرون وتقلون .

ومن الأمثلة النثرية قول على رضى الله عنه : إن أعظم الذنوب ماصغر عند صاحبه(٤)، والطباق بين أعظم ،وصغر، وهما لفظان مختلفان فى الصياغة فالأول اسم ، والثانى فعل .

ومن الأمثلة الشعرية قول طفيل الغنوى .

بساهم الوجه لم تقطع أباجله
يصان وهو ليوم الروع مبذول(٥)

وقول البحترى :

فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها وريق الغيث أحيانا يباكيها(٦)

---

(١) البقرة : ١٧٩
(٢،٣) البديع : ٣٦
(٤) البديع ٣٧
(٥) البديع : ٣٩
(٦) السابق : ٤٤

والطباق فى البيت الأول بين يصان ومبذول ، وفى البيت الثانى بين يضاحكها ويباكيها .

ومن الأمثلة التى ذكرها قول عبد الله بن الزبير الأسدى :

رمى الحدثان نسوة آل حرب
بمقدار سمدن له سمودا

فـــرد شعورهن السود بيضا
ورد وجوهن البيض سودا

والطباق فى البيت الثانى بين السود والبيض ، وقد جعل المتأخرون هذا البيت شاهدا « للعكس والتبديل » حيث وقع ذلك بين شطريه ، وهو لا يتعارض مع المطابقة ، لأن مبنى العكس والتبديل على تقديم جزء فى الكلام ، ثم تأخيره على ما قدم عليه(١) .

وبعض الأمثله التى ذكرها تدخل فى طباق السلب كقول أبى العتاهية :

لا تلمنى على التى فتنتنى وأرتنى القبيح غير قبيح(٢)

فبين قبيح وغير قبيح مطابقة عرفت عند البلاغيين باسم طباق السلب

ومن الأمثلة التى ذكرها ما يدخل تحت المقابلة التى عرفها البلاغيون من بعده ، وجعلها أبو هلال من ألوان البديع(٣) .

---

(١) ينظر بغية الإيضاح : ٤/٢٦
(٢) البديع : ٤٤
(٣) الصناعتين : ٢٦٤

وذلك كقول أبي تمام :

فيم الشماتة إعـــلانا بأسدوغى أفناهم الصبر إن بقاكم الجزع(١)

وكقول النميرى :

وسعودهن طوالع ونحوسهن أفول(٢)

ففى البيت الأول مقابلة بين أفناهم الصبر وبقاكم الجزع ، وفى البيت الثانى مقابلة بين شطرى البيت ، فالبيتان من الأمثلة التى قوبل فيها بين معنيين ومعنيين مضادان لهما .

المطابقة المعيبة :

وذكر ابن المعتز أمثلة للمطابقة المعيبة ، منها قول الأخيطل :

قلت المقام وناعب قال النوى فعصيت أمرى والمطاع غراب

وعلق عليه بقوله : وهذا من غث الكلام وباردة(٣) .

وقول بعض الشعراء فى القاسم بن عبيد الله :

من كان يعلم كيف رقة طبعه هو مقسم أن الهواء ثخين(٤)

ولم يذكر ابن المعتز السبب الذى جعلها معيبة ، وبالنظر فيها نرى أن الشاعر الأول طابق بين المقام والنوى ، والعصيان والطاعة ، والثانى طابق بين رقة وثخين ، والتكلف فيهما ظاهر ، حيث تعمد كل من الشاعرين الإتيان بالألفاظ المطابقة من غير نظر إلى قيمتها المعنوية .

ومذهب «ابن المعتز» فى جمال البديع يقوم على مجيئه عفوياً من غير قصد ولا تعمل ، ويكون له أثر فى تقوية المعنى ، وتحسين الأسلوب(٥) .

---

(١) البديع : ٤٢ (٢) السابق : ٤٣ (٣) السابق : ٤٦

(٤) السابق ٧ : ٤ (٥) ينظر البديع : ٣٤،١

٤ — رد الأعجاز على ما تقدمها :

وهو الباب الرابع من أبواب البديع عند ابن المعتز ، ولم يشر أحد من العلماء قبله إلى هذا اللون ، فالفضل له فى هذا الباب خالص ، فهو صاحب مصطلحه ، وتقسيمه ، وانتقاء أمثلته(١) .

وقد قسم ابن المعتز هذا الباب إلى ثلاثة أقسام(٢) :

الأول : ما يوافق آخر كلمة فيه آخر كلمة فى نصفه الأول ، كقول الشاعر :

تلقى إذا ما الأمر كان عرمرما ... وليس إلى داعى الندى بسريع

والثانى : ما يوافق آخر كلمة منه أول كلمة فى نصفه الأول كقول الشاعر :

سريع إلى ابن العم يلطم خده ... وليس إلى نادى الندى بسريع

والثالث : ما يوافق آخر كلمة فيه بعض ما فيه كقول الشاعر :

عميد بنى سليم أقصدته ... سهام الموت وهى له سهام

وبعد هذا التقسيم أخذ فى ضرب أمثلة له من القرآن الكريم والحديث الشريف ، وشعر القدماء والمحدثين .

فمن القرآن الكريم قوله تعالى :(٣) « انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا »(٤) .

ومن الحديث الشريف قوله ﷺ : من مقت نفسه فقد آمنه الله من مقته(٥) .

---

(١) ينظر الصبغ البديعى : ١٣٤ (٢) ، (٤) ، (٥) ، (٦) البديع : ٤٧ ، ٤٨
(٣) الإسراء : ٢١

ومن الشعر قول طفيل :

محارمك امنعهـا من القوم إننى
أرى حقبة قد ضاع فيها المحارم(١)

وهو من القسم الثانى فى هذا الباب .

وقول بشار :

طلوب ومطلوب إليه إذا غدا
وخير خليلك المطلوب المطلب(٢)

وهو كسابقه من القسم الثانى .

المعيب منه :

وساق ابن المعتز أمثلة للمعيب من هذا الباب ، ومنها قول ذى نواس البجلى :

يتيمنى برق المباسم بالحمى ولا بارق إلا الكريم يتيمه

وعلق عليه بقوله : وهذا قد جمع على غثاثته بابين من بديع الكلام ، وهما هذا الباب ، وباب الاستعارة .

والاستعارة فى لفظ «برق» ، ورد الأعجاز بين آخر كلمة فى البيت وأول كلمة فيه ، وهو من القسم الثانى ، وقد حكم ابن المعتز على البيت بأنه معيب ، ولم يذكر سببا لذلك .

وبالتأمل فى البيت نرى أن الشاعر استعار البرق لبياض الثغور عند التبسم وهى استعارة بعيدة . كما أنه أخر الفعل «يتيمه» ليتحقق له رد العجز على الصدر ، فأحدث خللا فى نظم الكلام ، ومن هنا كان البيت غثاً باردا .

---

(١) السابق : ٥٠ (٢) السابق : ٥٣

٥ — المذهب الكلامى :

وهو الباب الخامس من أبواب البديع وقد ذكر ابن المعتز فى مطلع حديثه عنه أنه نقله عن الجاحظ ، وحكم عليه بالتكلف ، فقال: وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ « المذهب الكلامى » وهذا باب ما أعلم أنى وجدت فى القرآن منه شيئاً ، وهو ينسب إلى التكلف تعالى الله عن ذلك علو كبيراً(١).

والناظر فى كتب الجاحظ ورسائله المعروفة لا يعثر على إشارة إلى المذهب الكلامى ، أو ذكر لاسمه(٢) .

وقد سار أبو هلال(٣) على ماذكره ابن المعتز، وذكر قوله السابق ولم يسق له شاهداً من القرآن الكريم .

ولكن المتأخرين من البلاغيين وقفوا من هذا اللون موقفاً آخر، فقالوا فى تعريفه : هو إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام(٤) ، بأن تكون المقدمات بعد تسليمها مستلزمة للمطلوب ، وساقوا له أمثلة من القرآن الكريم كقوله تعالى : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا»(٥) وغير ذلك .

وقد ذكر ابن المعتز لهذا الباب أمثله نثرية وشعرية ، فمن النثر قول عمر ابن الخطاب لعبد الله بن عباس : من ترى أن نوليه حمص ؟ قال: رجلا صحيحاً منك ، صحيحاً لك ، قال : كن أنت ذلك الرجل . قال : لا ينتفع معى بسوء ظنى فى سوء ظنك بى(٦) .

ومن الشعر ، قول الفرزدق(٧) .

---

(١) البديع : ٥٣ (٢) البلاغة عند الجاحظ : ١٠٣
(٣) ينظر الصناعتين : ٣٢٦ (٤) بغية الإيضاح : ٤، ٥٠
(٥) الأنبياء : ٢٢ (٦، ٧) البديع : ٥٤

لكل امرىء نفسان نفس كريمة وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للندى إذا قل من أحرارهن شفيعا

وقول ابن المعتز نفسه :

أسرفت فى الكتمان وذاك منى دهانى
كتمت حبك حتى كتمتنه كتمانى
ولم يكن لى بد من ذكره بلسانى(١)

والمتأمل فى الأمثلة التى ذكرها للمذهب الكلامى يفهم أنه يريد به استعمال طريقة المتكلمين فى الاحتجاج ، وإثبات الكلام بالأدلة :

المعيب منه :

ومثل « ابن المعتز » للمعيب من المذهب الكلامى بأمثلة منها قول الشاعر(٢) :

نعم منك كانت مثل لا إذ بلوتها
فما نعم عندى على لاء من فضل

ويظهر فيه التكلف ، والتنافر المؤدى إلى الثقل ، والابتذال فى الألفاظ .

وبهذا الباب ينتهى كلام « ابن المعتز » فى أبواب البديع الخمسة ، لينتقل منها إلى الحديث عن محاسن الكلام والشعر .

وهذه المحاسن التى تحدث عنها العلماء من بعده إلى أبواب البديع ، ولم يقتصروا على الأبواب الخمسة التى ذكرها ، وهذا لا يضير « ابن المعتز »

---

(١) البديع : ٥٦ (٢) السابق : ٥٨ ، ٥٩

فى شىء ، فقد ترك الباب مفتوحا لمن جاء بعده ، فقال : فمن أحب أن يقتدى بنا ويقتصر بالبديع على تلك الخمسة فليفعل ، ومن أضاف من هذه المحاسن أو غيرها شيئا إلى البديع ، ولم يأت غير رأينا فله اختياره(١) .

ونسير مع « ابن المعتز » فى محاسن الكلام والشعر ، فنجده قد ذكر منها ثلاثة عشر لونا .

١ — الالتفات :

وهو عند « ابن المعتز على نوعين »(٢) :

الأول : انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار ، وعن الإخبار إلى المخاطبة وما شابه ذلك .

والثانى : الانصراف عن معنى يكون فيه إلى معنى آخر .

فمن الأول قوله تعالى : « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة » .

ومن الثانى قول جرير :

متى كان الخيام بذى طلوح ... سقيت الغيث أيتها الخيام

أتنسى يوم تصقل عارضيها ... بعود بسامة سقى البشام

ونلحظ أن النوع الأول هو الالتفات المعروف عند المتأخرين ، والآية التى مثل بها « ابن المعتز » فيها التفات من الخطاب إلى الغيبة .

أما النوع الثانى فهو نوع من الاعتراض ، وقد حكاه الأصمعى على أنه التفات ، ومثل يقول جرير السابق(٣) .

---

(١) السابق : ٥٨

(٢) السابق : ٤٨ ، ٥٩

(٣) ينظر العمدة : ٣/٤٤

٢ — الاعتراض :

وتحدث عنه « ابن المعتز » فقال: ومن محاسن الكلام والشعر، اعتراض كلام فى كلام لم يتمم معناه، ثم يعود إليه فيتممه فى بيت واحد (١).

ومن أمثلته قول كثير :

لو أن الباخلين ـ وأنت منهم ـ رأوك تعلموا منك المطالا

والاعتراض فى قوله « وأنت منهم » .

٣ — الرجوع :

وقد عرفه بقوله : هو أن يقول شيئا ويرجع عنه، كقول بشار (٢):

نبئت فاضح أمه يغتابنى عند الأمير وهل عليه أمير

والرجوع هنا فى قوله : وهل عليه أمير .

٤ — حسن الخروج :

والمقصود به عند « ابن المعتز » حسن الخروج من معنى إلى معنى(٣)، ومن أمثلته قول السموءل :

وإنا لقوم ما نرى القتل سبة إذا ما رأته عامر وسلول

---

(١) البديع : ٥٩ ، ٦٠ .

(٢) السابق : ٦٠ .

(٣) السابق : ٦٠ ، ٦١ .

وحسن الخروج فى البيت يمثله الشطر الثانى، وقد بحثه أبو هلال تحت اسم الاستطراد وقال فى تعريفه : أن يأخذ المتكلم فى معنى فبينما يمر فيه يأخذ فى معنى آخر ، وقد جعل الأول سببا إليه (١) .

٥ — تأكيد المدح بما يشبه الذم :

ولم يعرفه « ابن المعتز » وإنما مثل له بقول النابغة الذبيانى (٢) :

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم بهن فلول من قراع الكتائب

وقول النابغة الجعدى :

فتى كملت أخلاقه غير أنه جواد فما يبقى من المال باقيا

فالاستثناء الواقع بعد الجملة الأولى فى كل من البيتين يوهم أن الشاعر مقبل على انتقاص الممدوح فى ناحية ، ولكنه يأتى بعده بصفة مدح على عكس المتوقع ، فيتأكد المدح الأول بذلك .

٦ — تجاهل العارف :

ومن أمثلته عند « ابن المعتز » قول زهير (٣) :

وماأدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء

فقد أخرج الشاعر ما يعرف صحته مخرج ما يشك فيه ، ليزداد كلامه تأكيدا .

---

(١) الصناعتين : ٣١٦ .

(٢) البديع : ٦٢ .

(٣) السابق : ٦٢ .

٧ — الهزل الذى يراد به الجد :

ومن أمثلته عنده قول أبى العتاهية (١) :

أرقيك أرقيك بسم الله أرقيكا من بخل نفس لعل الله يشفيكا
ما سلم نفسك إلا من يتاركها وما عدوك إلا من يرجيكا

٨ — حسن التضمين :

ومن أمثلته عنده قول الأخيطل (٢) :

ولقد سما للخرمى فلم يقل بعدالوغى : لكن تضايق مقدمى

فالشاعر فى هذا البيت ضمنه بعضا من بيت عنترة العبس وهو قوله :

إذ يتقون بى الأسنة لم أحم عنها ولو أنى تضايق مقدمى

٩ — التعريض والكناية :

ومن أمثلته ، قال على رضى الله عنه لعقيل ومعه كبش له : أحد الثلاثة أحمق ، فقال عقيل : أما أنا و كبشى فعاقلان (٣) .

ومنها قول بشار :

وإذا ما التقى ابن أعيا وبكر زاد فى ذا شبر وفى ذاك شبر

وعلق عليه فقال : أراد أنهما يتبادلان (٤) .

---

(١) السابق : ٦٣ . (٢) السابق : ٦٤ .
(٣) السابق : ٦٤ . (٤) السابق : ٦٧ .

ونلحظ أنه جمع التعريض والكناية فى باب واحد ولم يفرق بينهما ، وقد سار على منهجه أبو هلال (١) .

١٠ — الإفراط فى الصفة :

وهو يقصد به المبالغة ، ومثل لهذا الباب بأمثلة منها قول أبى نواس :

ملك أغر إذا احتبى بنجاده غمر الجماجم والسماط قيام

وأشار إلى أن بعض الشعراء يسرف فى المبالغة حتى يخرج عن المقبول ، فقال : ثم أسرف الخثعمى حتى خرج عن حد الإنسان ، فقال :

يدلى يديه إلى القليب فيستقى فى سرجه بدل الرشاء المكرب(٢)

١١ — حسن التشبيه :

وقد مثل له بأمثلة كثيرة ، وقال فى أول حديثه عنه : نبدأ بإمام الشعراء ، قال امرؤ القيس :

ومسرودة السك موضونة تضاءل فى الطى كالمبرد
تفيض على المرء أردانها كفيض الأتى على الجد جد

وذكر نماذج أخرى من تشبيهاته ، ثم ذكر بعض تشبيهات النابغة وزهير وغيرهما من القدماء والمحدثين .

وكأنه يرى أن امرأ القيس رائد هذا الفن فى الشعر العربى القديم ، وقد أفاض « ابن المعتز » فى ذكر الأمثلة الجيدة من التشبيهات على خلاف ما عهد عنه فى الأبواب السابقة من محاسن الكلام .

(١) الصناعتين : ٢٩٠ . (٢) البديع : ٦٦ .

ولا يغيب عنا فى هذا الموضع أن نشير إلى أنه من الشعراء المشبهين ، وأن تشبيهاته نالت حظا وافرا من استحسان النقاد ، وإعجابهم ، وقد ساق الإمام عبد القاهر كثيرا منها(١) .

١٢ — إعنات الشاعر نفسه فى القوافى :

وهذا اللون عرف عند المتأخرين بلزوم ما لا يلزم ، وقال ابن المعتز عنه : ومن إعنات الشاعر نفسه فى القوافى ، وتكلفه من ذلك ما ليس له قول رافع بن هريم اليربوعى :

فإلا تحامونى تصبكم بعبرة ... مفارقتى أو تقبسوا من شراريا

اذا صار لونى كل لون وبدلت ... نضارة جهى مخضبا باصفراريا

فسرى كإعلانى وتلك سجيتى ... وظلمة ليلى مثل ضوء نهاريا

فالشاعر قد ألزم نفسه فى قافية البيت بما لم يشترطه علماء العروض ، وهذا يزيد من الوقع الموسيقى للقصيدة .

١٣ — حسن الابتداءات :

ومن أمثلته قول النابغة(٢) :

كليني لهم ياأميمة ناصب ... وليل أقاسيه بطيء الكواكب

وبهذا اللون من محاسن الكلام ينتهى كتاب « البديع » ، وقد رأينا من الجولة التى أمضيناها فى رياضه أنه قد حوى ثمانية عشر لونا من ألوان البديع ، وإن كان « ابن المعتز » قد أطلق لفظ « البديع » على الألوان الخمسة الأولى ، وأطلق على بقية الألوان محاسن الكلام والشعر :

---

(١) ينظر أسرار البلاغة : ١ / ١٩٨ وما بعدها

(٢) البديع : ٧٥

وهناك ألوان أخرى وردت فى كتب السابقين على « ابن المعتز » ، كالسجع ، والازدواج ، وأسلوب الحكيم ، وغيرها ولم يعرض لها « ابن المعتز فى كتابه وهذا لا ينقص من قدر كتابه ، فقد كان — كما قال — يهدف إلى تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى فنون البديع ، وفيما ذكره من ألوان دليل على ما قصده وهدف إليه .

كما أنه لم يدع أنه أحصى كل فنون البديع ومحاسن الكلام ، بل ترك الباب مفتوحا أمام الباحثين لإضافة ما يرون من ألوان .

وبعد أن انتهينا من استعراض كتاب « البديع » وتحليل موضوعاته علينا أن ننتقل إلى القسم الثانى من هذا البحث .

ثانيا : بين التأثر والتاثير

مصطلح «البديع» ليس جديدا فى كتاب « ابن المعتز » ولكنه عرف قبل ذلك ، وأطلق على الألوان المستطرفة ، والفنون الساحرة فى الأسلوب، من استعارة ، وتشبيه ، وتجنيس ، ومطابقة .

ويذكر «أبو الفرج الأصفهانى» أن «مسلم بن الوليد المتوفى سنة ٢٠٨هـ كان أول من أطلق هذا الاسم ، فيقول : وهو — يعنى مسلما — فيما زعموا، أول من قال الشعر المعروف بالبديع، هو لقب هذا الجنس البديع واللطيف، وتبعه فيه جماعة ، وأشهرهم فيه أبو تمام الطائى ، فإنه جعل شعره كله مذهبا واحدا فيه(١) .

ويرى الجاحظ أن الرواة هم أول من أطلقوه ، فيقول معلقا على بيت الأشهب بن رميلة :

هم ساعد الدهر الذى يتقى به
وما خير كف لاتنوء بساعد

قوله : هم ساعد الدهر ، إنما هو مثل ، وهو الذى تسميه الرواة البديع(٢) .

كما يرى الجاحظ أن الشعراء المحدثين قد احتذى بعضهم ببعض فيه ، فيقول :

وكان العتابى يحتذى حذو بشار فى البديع ، ولم يكن من المولدين

---

(١) الأغانى : ١٩ / ٣١
(٢) البيان والتبيين : ٤ / ٥٥

أصوب بديعا من بشار وابن هرمة(١) ، ويقول : والراعى كثير البديع فى شعره ، وبشار حسن البديع ، والعتابى يذهب شعره فى البديع(٢) .

ومن دفاعه عن العرب ولغتهم جعل البديع من خواصهم فقال : والبديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتهم كل لغة ، وأربت على كل لسان(٣) .

« وابن المعتز ، نفسه يعترف بأن هذه التسمية ليست من ابتكاره ، وإنما هى من وضع المحدثين ، وقد كانت هذه الفنون موجودة فى الشعر العربى القديم ، ولكنها لم تعرف بهذا الاسم(٤) .

ونرى مما سبق أن « ابن المعتز » لم يؤلف كتابه من فراغ ، ولكنه كان مسبوقا بإشارات إلى « البديع » وبعض ألوانه ، وهو من غير شك قد طالع ما كتبه سابقوه ، وتأثر بهم ، كما أنه قد ترك أثرا كبيرا فيمن جاء بعده ، وهذا ما سنبينه فيما يلى :

١ — تأثره بالسابقين :

من أول الذين تأثر بهم « ابن المعتز » متقدموا اللغويين ، كالخليل بن أحمد ، والأصمعى ، وقد استشهد أكثر من مرة بكلا مهما(٥) .

كما تأثر كثيرا بالجاحظ ، الذى نثر فى كتابيه « البيان والتبيين » ، والحيوان ، كثيرا من مسائل البلاغة .

---

(١) السابق : ١ / ٥٥ (٢) السابق : ٤ / ٥٦

(٣) السابق : ٤ / ٥٥ (٤) ينظر البديع : ١ ، ٥٨

(٥) ينظر البديع : ١٠ ، ٢٥ ، ٣٦

فلقد سبق الجاحظ إلى الحديث عن الاستعارة ، والتعريض والكناية ، والتشبيه ، وجـــودة الابتداء وهى من الأبواب التى تحدث عنها « ابن المعتز » .

وصرح « ابن المعتز » فى كتابه أنه تبع الجاحظ فى «المذهب الكلامى» وهو الباب الخامس من أبواب البديع الذى ذكرها «ابن المعتز »(١) .

ومما لا شك فيه أنه قد استفاد من كتابات «ابن قتيبة » و«المبرد»وهما من مشاهير العلماء فى عصره .

وقد عرض « ابن قتيبة » لبعض الألوان التى ذكرها « ابن المعتز » كالاستعارة ، والكناية ، والمبالغة ، كما عرض المبرد لبعض الألوان ، وخاصة التشبيه الذى أفاض فى الحديث عنه .

بين ابن المعتز وثعلب :

كان أحمد بن يحيى « ثعلب » المتوفى سنة ٢٩١ هـ أستاذ « ابن المعتز » الأول ، وكان « ابن المعتز » يعتز بتلمذته على « ثعلب » ، وظل يكن له الود ويعترف له بالفضل ، ويراسله حتى فى أشد ساعات الحرج وهو بين جدران السجون .

وتروى لنا كتب الأدب الأرجوزة التى كتبها « ابن المعتز » من سجنه إلى أستاذه « ثعلب » ، يبثه شوقه إليه ، ويفصح له عن مدى تعلقه به ، وهو يقول :

ما وجد صاد بالحبال موثق

---

(١) البديع : ٥٣

بماء مزن بارد مصفق
بالريح لم يكدر ولم يرنق
جادت به أخلاق دجن مطبق
بصخرة إن تر شمساً تبرق
ماد عليها كالزجاج الأزرق
صريح غيث خالص لم يمذق
إلا كوجدى بك لكن أتقى
يا فاتحا لكل باب مغلق
وصيرفيا ناقداً للمنطق
إن قال هذا بهرج لم ينفق
إنا على البعاد والتفرق
لنلتقى بالذكر إن لم نلتق(١)

وقد ألف «ثعلب» كتابه «قواعد الشعر» وبحث فيه عدداً من المسائل البلاغية، والنقدية، منها: التشبيه، والكناية، وسماها «لطافة المعنى»(٢)، والاستعارة(٣)، وحسن الخروج(٤)، والمطابقة وسماها «مجاورة الأضداد»(٥)، والجناس، وسماه المطابق(٦)، وغير ذلك.

ولم يشر «ثعلب» إلى تاريخ تأليف كتابه هذا، ومن هنا اختلف العلماء حول تأثر «ابن المعتز» بكتاب «قواعد الشعر» لثعلب.

---

(١) زهر الآداب: ١/٢١٧
(٢) قواعد الشعر: ٤٢
(٣) السابق: ٤٧
(٤) السابق: ٥٠
(٥) السابق: ٥٣
(٦) السابق: ٥٦

فأستاذنا الدكتور أحمد موسى يرى : أن « ابن المعتز » سابق فى تأليف كتابه ، حيث ألفه سنة : ٢٧٤ هـ ، وعلى هذا فلم يتأثر « بقواعد الشعر »(١) .

وأستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى يرى عكس ذلك فيقول : وابن المعتز من غير شك ، مدين لأستاذه « ثعلب » فى « البديع » فنحن نكاد نجزم بأن « ثعلبا » ألف هذا الكتاب قبل أن يؤلف « ابن المعتز » كتابه ، لأن « ثعلبا » عالم معمر ، ولو كان « ابن المعتز » سبقه بالتأليف ، لاستفاد من كتابه ، وأكثر من الحديث عن ألوان البديع (٢) .

ودليل أستاذنا الدكتور خفاجى يسهل الرد عليه ، إذ لا يتعين على اللاحق أن يستفيد من السابق ، كما أنه ليس شرطا على اللاحق أن يزيد على السابق .

ولو كان الأمر كما قال أستاذنا ، فيمكن أن نقول : إن « ثعلبا » تكلم فى كتابه عن موضوعات لم يتحدث عنها « ابن المعتز » كفنون الشعر وقواعده ، ولو ألف « ابن المعتز » كتابه بعد كتاب « ثعلب » لاستفاد منه ، وذكر هذه الفنون وغيرها .

لقد صرح « ابن المعتز » فى كتابه بأنه لم يجمع فنون البديع أحد قبله ، فلماذا نتهمه فى هذا القول ، ولم يثبت لدينا عكسه .

وإذا كان « ثعلب » أول مؤلف فى هذا الموضوع فكيف سكت على دعوى تلميذه ؟ ولم يكذبه فيها ؟

---

(١) ينظر الصبغ البديعى : ١٣٨ .
(٢) ابن المعتز وتراثه : ٦٠٦ .

ويرد الدكتور حفنى شرف على هذا بدليل غير مقطوع بصحته ، فيقول : لعل « ثعلبا » لم ير الكتاب ، أو رآه ولكنه فهم أنه يقصد أنه أول من ألف تحت هذا الاسم لا أول مخترع ، وربما ظهر المؤلفان فى زمن واحد ، فتكون الأسبقية للأستاذ (١) .

أما قول الدكتور حنفى شرف : لعله لم يره ، فشكوك فيه ، إذ يستبعد أن يخفى « ابن المعتز » عن أستاذه مثل هذا العمل ، وقوة الصلة بينهما ، ودوام المراسلة والاتصال حتى فى أحلك الظروف تؤيد ما قلناه .

« وثعلب » عاش بعد تأليف « البديع » سبع عشرة سنة ، ألم يتيسر له الاطلاع على الكتاب فى هذه المدة الطويلة ؟ !

وهذه المدة التى عاشها « ثعلب » بعد ظهور « البديع » أليست كافية لأن يؤلف فيها « قواعد الشعر » وما هو أكبر منه ؟ .

والذى نريد أن نصل إليه : أنه لا ينبغى المغالاة فى إثبات تأثر « ابن المعتز » « بثعلب » حتى نسلبه فضله الكبير ، وأثره البعيد فى بناء صرح البيان العربى ، فى الوقت الذى لم نعثر فيه على دليل قاطع بذلك .

والذى لا شك فيه أن بين الكتابين فروقا جوهرية يجب أن نشير إليها :

(ا) أن كتاب « قواعد الشعر » « لثعلب » تغلب عليه الصبغة النقدية ، حيث ألف للحديث عن الشعر وفنونه من مدح وهجاء ، ورثاء واعتذار ، وتشبيه وتشبيب .

وكتاب « البديع » « لابن المعتز » تغلب عليه الصبغة البلاغية ، فعماده الحديث عن فنون البديع ، ومحسنات الكلام .

---

(١) ابن أبى الأصبع : ٥٦ .

(ب) يختلف كل من المؤلفين فى بعض المصطلحات ، فثعلب يقول : « مجاورة الأضداد » وقد سماها « ابن المعتز » « المطابقة » ، وثعلب يقول : « لطافه المعنى » ، وقد سماها ابن المعتز « الكناية والتعريض » ، وثعلب يريد بالمطابق المجانس ، وقد فرق « ابن المعتز » بين اللونين .

(ح) كتاب « ابن المعتز » فياض بالشواهد الأدبية ، والأمثلة الجيدة من القرآن الكريم والحديث الشريف والنثر والشعر فى القديم والحديث ، وكتاب « ثعلب » فقير فى هذه الناحية .

وعلى كل فالكتابان — مهما اختلف الباحثون حولهما — لهما قيمة كبيرة فى تاريخ النقـــد والبيان ، وهما من أول الخطوات الرائدة فى هذا الدرب .

كتاب البديع والثقافة اليونانية :

الذى يطالع كتاب « البديع » يحكم عليه بأنه عربى فى شكله ومضمونه ، فقـــد جمع فيه مؤلفه ألوانا من البديع ومحاسن الكلام ، كانت معروفة عند اللغويين والأدباء المتقدمين كالخليل بن أحمد ، والأصمعى ، وأبو عبيدة ، وغيرهم ، ولكنها كانت مبثوثة فى ثنايا الكتب لا يجمعها مؤلف واحد .

وسار فى كتابه على منهج أدبى ذوقى قوامه ضرب الشواهد ، وجمع الأمثلة ، وهو منهج يسير لاأثر فيه للفكر المنطقى ، ولا للثقافة اليونانية .

ولكن الدكتور طه حسين أثار شبهة حول كتاب « البديع » يرى فيها أن هذا الكتاب لم يسلم من أثر الغارة « الهلينية » ، ويبدو فيه أثر الثقافة اليونانيـــة .

وقد ذكر ذلك فى مقدمته لكتاب « نقد النثر » فقال : ... وجد منذ

منتصف القرن الثالث بيانان : أحدهما عربي محافظ ، لا يقرب الفلسفة اليونانية إلا في كثير من التحفظ والاحتراس ، والآخر يوناني يجهر بالأخذ عن أرسطو .

على أن من الخطأ البين أن نعتقد أن البيان الذي نعتناه بالمحافظة قد سلم من أثر الغارة الهلينية ، فقد يكون عجيبا على أقل تقدير أن يظهر أول كتاب في البيان العلمي في ذات الوقت الذي ظهرت فيه ترجمة « كتاب الخطابة » لأرسطو ، ومع ذلك فهذا الذي كان .

لقد ترجم حنين بن إسحاق « كتاب الخطابة » ، ومن المحتمل أن تكون هذه الترجمة قد ظهرت بعد وفاة الجاحظ ، أي في النصف الثاني من القرن الثالث ، لأن حنين بن إسحاق توفي سنة ٢٩٨ هـ ، في هذه الفترة عينها وضع أمير المؤمنين الشاعر المتعس عبدالله بن المعتز كتاب « البديع » .

لم أطلع على كتاب « البديع » هذا ولكن الذين نقلوا عنه أكثروا من ذكره كثرة تمكننا من تصوره ، فهو عبارة عن تعداد لأنواع البديع مع الاستشهاد لكل نوع منها بشواهد من كلام القدماء والمعاصرين لابن المعتز ، ومع الموازنة بين هذه الشواهد بعضها وبعض ، وهم يقولون إن ابن المعتز أحصى في كتابه ثمانية عشر نوعا من أنواع البديع ، من يدرسها في كتاب معاصره قدامة بن جعفر وفي كتب الذين جاءوا بعده يلحظ فيها لا محالة أثرا بينا للفصل الثالث من كتاب « الخطابة » وبعبارة أدق ، للقسم الأول من الفصل الثالث وهو الذي يبحث في « العبارة » (١) .

لقد أثار الدكتور طه حسين هذه المقولة من غير أن يطلع على كتاب « البديع » ، وساندها كثيرون ممن تتلمذوا عليه ، واعتنقوا آراءه ، ومنهم

---

(١) مقدمة نقد النثر : ١١ ، ١٢ .

الدكتور محمد مندور الذى اطلع على كتاب «البديع» وأجهد نفسه فى إثبات تأثر ابن المعتز بأرسطو ، ففى كتابه «النقد المنهجى» يقول : من أين أتى «ابن المعتز» بتلك الاصطلاحات ؟ .

يقول ابن المعتز : إنه لم يسبقه إلى ذلك أحد، وأنه قد ألف كتابه سنة ٢٧٤هـ ولكننا نعلم أن حنين بن إسحاق، قد ترجم كتاب «الخطابة» لأرسطو، مما يدل على أن هذا الكتاب قد عرفه العرب، وليس بغريب أن يكونوا قد أحاطوا بموضوعه قبل ترجمة حنين . ومع ذلك نستطيع أن نرجع إلى نص أرسطو نفسه، فنجده فى الجزء الثالث من كتابه يتحدث عن «العبارة»، وفيه يذكر الاستعارة ، والطباق ، والجناس ، ورد الأعجاز على ما تقدمها ، وهذه أربعة من الخمسة التى ميزها «ابن المعتز» مذهب المحدثين، وأما الخامس وهو المذهب الكلامى ، فذكر ابن المعتز نفسه أنه قد أخذه عن الجاحظ وهو فى الواقع ليس من خصائص الصياغة الجديدة ، بل هو منهج عقلى(١) . . .

ويتحدث «مندور» عن الاستعارة ويقول إن تعريف ابن المعتز لها يكاد يكون تعريف أرسطو ، ويتحدث عن الطباق ويقول إن لفظة طباق، ما هى إلا ترجمة للفظة اليونانية ، وابن المعتز — على الأرجح — كان يعرف تحليل أرسطو لهذا الوجه من البديع(٢) .

ثم يقول : وابن المعتز لم يقتصر على التعريفات والتقاسيم ، بل عداها إلى نقد المعيب من كل وجه من أوجه البديع التى ذكرها ، وهو فى هذا أيضا يشبه أرسطو الذى نجده فى نفس الفصل الثالث من «خطابته» ينتقد ما فى بعض الأمثلة من عيوب(٣) .

---

(١) النقد المنهجى : ٦١، ٦٢

(٢) السابق : ٦٣

(٣) السابق : ٦٥

الرد على هذه الشبهة :

من قراءتنا لما كتبه الدكتور طه حسين فى مقدمة « نقد النثر » نرى أنه يستند فى دعواه إلى دليلين :

الأول : ظهور ترجمة « خطابه » أرسطو فى عصر « ابن المعتز » على يد حنين بن إسحاق .

والثانى : موضوعات الكتاب ومحتواه .

وإذا نظرنا فى الدليل الأول وجدناه لا ينهض للحجة لأمور :

١ — أن ترجمة « حنين » « للخطابة » لم يعرف تاريخها الحقيقى ، وهل كانت قبل تأليف « البديع » أو بعده .

٢ — أن وفاة حنين سنة ٢٩٨ هـ أو ٢٩٦ هـ لا تدل على أنه ترجم الخطابة قبل سنة ٢٧٤ هـ تاريخ تأليف « البديع » . فمن الجائز أن تكون الترجمة بعد هذا التاريخ ، والمدة الباقية فى حياة « حنين » كافية لأكثر من هذا .

٣ — على فرض وقوع الترجمة قبل تأليف « البديع » هل كان فرضا على « ابن المعتز » أن يطلع على هذه الترجمة ؟ ؟ أليس من الجائز أن يكون « ابن المعتز » لم ير هذه الترجمة ؟ كما لم ير الدكتور طه حسين كتاب « البديع » مع أنه ظهر بتحقيق المستشرق الروسى كراتشكوفسكى سنة ١٩٣٥ .

ومن هذا نرى أن دليل الترجمة لا ينهض للاحتجاج به .

وإذا تأملنا الدليل الثانى وجدناه ساقطا لأمور :

١ — أن الدكتور طه حسين حكم على كتاب « البديع » قبل أن يطلع عليه ولا يصح الحكم على شىء إلا بعد رؤيته ودراسته بحيث يصبح الحاكم مؤهلا للحكم .

٢ — أن تصوره لكتاب «البديع» من خلال «نقد الشعر» لقدامة، وغيره تصور غير دقيق، حيث ذكر أن الكتاب عبارة عن تعداد لأنواع البديع، مع الاستشهاد لكل نوع منها ... ، ومع الموازنة بين هذه الشواهد بعضها وبعض ، والذى يطالع « البديع » لا يجد فيه هذة الموازنات التى تصورها القاضى .

٣ — أن حكمه على «البديع» من خلال «نقد قدامة» وغيره، حكم خاطىء لأن منهج « قدامة » يختلف تمام الاختلاف عن منهج « ابن المعتز » ، فمنهج قدامة عقلى محض ، ومنهج «ابن المعتز» أدبى ذوقى .

وقد فرق الدكتور مندور بين المنهجين فقال : ابن المعتز، غير قدامة .. ابن المعتز يبدأ تفكيره من الوقائع والنظر فيها ، وهو عربى صميم ، سليم الذوق ، يعرف الشعر العربى ويتذوقه .... وأما قدامة فعقليته شكلية صرفه، وهو لا يبدأ بالنظر فى الشعر ، بل يكون أولا هيكلا لدراسته ، ويحدد تقاسيمه ،أو إن شئت فقل : إنه يصنع قطعة أثاث هندسية التركيب ، ثم يأخذ فى ملء أدراجها»(١) .

وبناء على هذا يتضح أن مقولة الدكتور طه حسين لا تستند إلى أدلة صحيحة ، وهى شبهة لا أساس لها ولا دليل عليها .

وحينما ننظر فى كلام الدكتور مندور نرى أنه يستدل بنفس الدليلين السابقين دليل الترجمة ودليل الموضوعات .

ولكنه يختلف عن الدكتور طه حسين فى الدليل الثانى نتيجة لقراءته كتاب «البديع» ، فقد أجهد نفسه فى المقارنة بين التعريفات والموضوعات ليثبت دعواه ، وكلامه منقوض ، بأمور :

---

(١) النقد المنهجى : ٦٨

١ — أن ألوان البديع التى تحدث عنها « ابن المعتز» موجودة فى كلام العرب وعرفها اللغويون والأدباء من قبله ، وقد وردت على لسان الخليل والأصمعى وأبى عبيدة وغيرهم ، فهل تأثر هؤلاء بخطابة « أرسطو» ؟

٢ — أن ابن المعتز لم يدع أنه لم يسبقه إلى معرفة هذه الألوان أحد، ولكنه ادعى أنه لم يسبق إلى جمع فنون البديع(١) .وهذا يدل على أنها كانت معروفة ولـكنها غير مجموعة ولا منظمة فى كتاب .

٣ — أن المنهج الذى سار عليه «ابن المعتز» فى كتابه ، منهج بسيط لا أثر للمنطق فيه ، ولا يخضع لترتيب عقلى منقول عن اليونان .

٤ — إن القول بأن ابن المعتز نقل هذه الألوان عن «خطابة» أرسطو فيه تجريد لعلماء العربية وأدبائها من معرفتهم بخصائص لغتهم ، ومواطن الحسن والقبيح فيها .

ولقد فطن الشعراء فى الجاهلية إلى معرفة جيد الشعر من رديئه ، وحسنه من قبيحه ... أيستبعد على « ابن المعتز » وهو شاعر وأديب، أن يهتدى إلى معرفة المعيب من الشعر فى لغته، حتى يقلد فى ذلك «أرسطو » ؟ ؟

يقول الأستاذ على الجندى مؤكدا وجود الجناس فى العربية :

الجناس من البلاغات الفطرية التى تسرى على الألسنة بلا تعمل ولا تكلف . وشواهده غزيرة فى الأدب القديم والقرآن الكريم . . . . ولم نعثر على شاهد واحد من الجناس اليونانى الذى تحدثوا عنه ، وأول من تحدث عنه الأصمعى ، ثم ابن المعتز ولا صلة لهما باليونانية،(٢) .

---

(١) البديع : ٥٨

(٢) فن الجناس : ١٤ — ١٧

ولقد نفى الدكتور إبراهيم سلامة تأثر «ابن المعتز» بخطابة أرسطو فقال(١) : وعلى الرغم من أن كتاب «الخطابة» كان معروفا فى نهاية القرن الثالث الذى عاش فيه «ابن المعتز» فإنا لم نر على كتاب «البديع» أية مسحة من الترجمة أو أية لوثة من العقل الهلينى . فالألوان التى ذكرها كلها مأخوذة مما نقل عن الشعراء ، والأدباء، وهو فوق ذلك شاعر رقيق الحاسة ، واسع المحفوظ ، يستطيع أن يورد على النوع البديعى الواحد كثيرا من الشواهد والأمثلة .

ولقد تحدث المستشرق الروسى «كراتشكوفسكى» بهذه الحقيقة ، وبين أن التأثيرات اليونانية فى البديع العربى لا يمكن الجزم بها بل من الصعب إثباتها فيقول : وما من شك أنه على صعيد الخلق الأدبى عامة ، لم يكن لأرسطو أى تأثير على الجاحظ أو أى كاتب عربى آخر فى القرن التاسع(٢)...

ويقول : فأسلوب ابن المعتز نفسه ، وسرعة الخاطر، والبداهة فى أعماله، تتميز بشكل واضح عما نجده فى أعمال فلاسفة اليونان(٣) .

ويقول : من الصعب إيجاد آثار للنفوذ اليونانى فى نشوء البديع العربى . فقد ولد هذا الأخير فى بيئة تختلف عن البيئة التى نشأ فيها البديع اليونانى كل الاختلاف(٤) .

وأكد أستاذنا الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى أصالة كتاب «البديع»

---

(١) بلاغة أرسطو بين العرب واليونان : ٨٢ وما بعدها
(٢) علم البديع والبلاغة عند العرب : ٥٩
(٣) السابق : ٥٨
(٤) السابق : ٢٣

وبين أنه من أوائل مؤلفات ابن المعتز ، وقد ألفه فى مرحلة الشباب قبل أن يلم بثقافة أخرى سوى الثقافه العربية(١) .

وهناك دليل آخر يمكن الاستدلال به فى دحض شبهة تأثر «ابن المعتز» « بخطابة ، أرسطو ، وهو أن ابن المعتز قد أنكر على معاصريه تفاخرهم بالبديع ، وجمعهم من الشعر القديم ما أثبت لهم أنهم لم يأتوا بجديد فى مجال القول البديع ، وأظهر فخره بأنه أول جامع لفنون البديع ، ولم يسبقه إلى ذلك أحد .

وكان من الطبعى لو أنه تأثر بالثقافة اليونانية أن يهاجموه ، ويقولوا له وأنت أيضا لم تأت بجديد ، وإنما نقلت عن اليونان تراثهم ...

ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يصل إلينا .

ومن هنا نرى أن الأدلة الكثيرة التى قدمناها تظهر بجلاء تام أن كتاب « البديع » وليد ثقافة عربية خالصة جاءت من رافدين نهل منهما « ابن المعتز » :

الأول : تربيته فى أحضان اللغويين والأدباء الذين كانوا عماد النهضة العلمية فى هذا الوقت .

والثانى : صفاء أفكاره ، وجودة قريحته ، وتمتعه بالخيال والشاعرية ، وقدرته على الابتكار والتجديد .

وننهى كلامنا فى تفنيد هذه الشبهة بكلام الدكتور شوقى ضيف فى

---

(١) ابن المعتز وتراثه : ٥٩٨

رده على ما أثاره الدكتور طه حسين : « إن كل ما فى كتاب « البديع » عربى خالص، وقد ألفه « ابن المعتز» ردا على من يلتمسون قواعد البلاغة فى المصنفات اليونانية ، والخارجين على قواعد العربية فى الشعر »(١) .

٢ — أثر «ابن المعتز» فى الدراسات البيانية :

حينما سبق « ابن المعتز » إلى وضع كتاب « البديع » كان قد غرس النواة التى نبتت منها رياض هـذا العلم ، وآتت ثمرا جنيا فى ميادين الأدب والبيان والنقد .

ولقد أثر كتاب « البديع » فى الدراسات البيانية التى ظهرت من بعده ، وترك « ابن المعتز » بكتابه بصمات واضحة المعلم فى تاريخ البيان العربى .

وفى اللمحات الوجيزة التالية نماذج من تأثر العلماء بكتاب «البديع» ، وهى من غير شك دليل قوى على أثره الكبير فى بناء صرح الدراسات البيانية .

قدامة بن جعفر :

ألف قدامة بن جعفر المتوفى سنة ٣٣٧ هـ كتابه « نقد الشعر » ولم يصرح بالأخذ عن « ابن المعتز » ، ولكن المطالع لكتابه يلحظ أنه عرف كتاب « البديع » واستخدمه واستفاد منه فى كتابه(٢) .

ويبدو أثر كتاب « البديع » فى « نقد الشعر» جليا واضحا ، فى مواضع

---

(١) البلاغة تطور تاريخ : ٧٠

(٢) علم البديع والبلاغة عند العرب : ٩٦

متفرقة ، فقد عرض « قدامة » للالتفات(١) ، والتشبيه(٢) ، والإستعارة، وذكرها فى المعاظلة(٣) وأمثلتها مما ذكره « ابن المعتز » .

كما بحث « الاعتراض » تحت اسم « التتميم »(٤) والإفراط فى الصفة تحت اسم « المبالغة »(٥) والطباق تحت اسم « التكافؤ »(٦) ، وتحدث عن المطابق والمجانس(٧) ، وهما يدخلان فى باب التجنيس عند ابن المعتز .

ويفترق قدامة عن ابن المعتز باتباعه لمنهج عقلى صرف ، وانفراده بألوان أخرى كثيرة لم يذكرها صاحب «البديع» .

الآمدى :

وجعل الحسن بن بشر الآمدى المتوفى سنة ٣٧٠ هـ كتاب ابن المعتز من مصادره ، ونقل عنه فى مواضع كثيرة من « موازنته » .

فاستشهد بما قاله « ابن المعتز » فى مقدمة كتابه عن سبق المتقدمين إلى فنون البديع ، وإكثار المحدثين منها ، وإسراف أبى تمام فى سلوك هذا المذهب حتى أساء فى بعض شعره(٨) .

وأشاد بفضل « ابن المعتز » وعلمه بالشعر . وحسن اختياراته

---

(١) ينظر نقد الشعر : ١٥٠

(٢) السابق : ١٢٤

(٣) السابق : ١٧٥

(٤) (٥) (٦) السابق : ١٤٤ — ١٤٧

(٧) السابق : ١٦٢

(٨) ينظر الموازنة : ١٨/١

فى كتابه(١) ، واستند على أحكام « ابن المعتز » فى حكمه بالقبح على بعض تجنيسات أبى تمام(٢) .

وأعجب الآمدى بمصطلح « المطابقة » عند « ابن المعتز » ، وعاب تسمية « قدامة » لهذا اللون بالتكافؤ(٣) .

ومن هذا نرى مدى اعتداده ببديع ابن المعتز وتأثره به .

أبو هلال :

وتأثر الحسن بن عبد الله العسكرى المتوفى ٣٩٥ هـ بابن المعتز إلى حد بعيد ، ففى كتاب « الصناعتين » جعل أبو هلال الباب التاسع لفنون البديع ، وذكر فيه الألوان التى ذكرها ابن المعتز وزاد عليها كثيراً مما ذكره قدامة وغيره .

والأبواب التى أخذها أبو هلال من بديع ابن المعتز تكاد تكون صورة من أصلها ، فى التعريف ، والأقسام ، والأمثلة ، وذكر المعيب(٤) .

وباب التشبيه عند أبى هلال فيه جل الأمثلة التى ذكرها ابن المعتز من التشبيهات الجيدة ، والتشبيهات المعيبة(٥) .

---

(١) السابق : ١/٣٣

(٢) السابق : ١/٢٨٦

(٣) السابق : ١/٢٩٢

(٤) ينظر الصناعتين فى فصول : الإستعارة والمطابقة ، والتجنيس ، ورد الأعجاز ، وغير ذلك .

(٥) ينظر الصناعتين : ١٨٠ — ١٩٨

ولا تختلف طريقة أبي هلال فى تناول أبواب البديع عن طريقة ابن المعتز . فهو يعرف اللون البديعى ، ويقسمه ، ويذكر له أمثلة من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر والنثر فى القديم والحديث.

وعلى الجملة فأثر « ابن المعتز » فى « أبى هلال » واضح تمام الوضوح ، ومن السهل إدراكه بمقارنة الأبواب المشتركة بينهما .

الباقلانى :

وتأثر أبو بكر محمد بن الطيب الباقلانى المتوفى سنة ٤٠٣ هـ ببديع « ابن المعتز » حيث ذكر فى كتابه « إعجاز القرآن » كثيراً من الأمثلة التى أوردها ابن المعتز ، ونقل صراحة فى حديثه عن المطابقة(١) والتجنيس(٢) .

ابن رشيق :

ومن المتأثرين إلى حد كبير بابن المعتز أبو على الحسن بن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ ، ويظهر ذلك جلياً حينما عرض فى كتابه « العمدة » للألوان التى ذكرها « ابن المعتز » فقد نقل عن ابن المعتز كثيراً من تعاريفه للألوان ، وشواهده لها(٣) .

وفى حديثه عن التصدير يذكر تقسيم ابن المعتز لهذا الباب ، ويذكر أمثلته(٤) .

---

(١) ينظر الصناعتين : ١٨٠ — ١٩٨

(٢) ينظر إعجاز القرآن على هامش الإتقان : ١/١١٧ ، ١/١٢٠

(٣) ينظر العمدة : ١/٢٣٢ (٤) ينظر العمدة : ٢/٣

وفى تناوله للالتفات يدخل فيـــه الاعتراض ، ويقول ، وقد جعل « ابن المعتز » الاعتراض بابا على حدته بعد باب الالتفات(١) .

وفى باب الاستثناء يشير إلى أن ابن المعتز سمـــاه « توكيد المدح بما يشبه الذم »(٢) .

ويسوق كلام « ابن المعتز » فى المذهب الكلامى ... ثم يقول : وقد نقلت هذا الباب نقلا من كتاب عبد الله المعتز ... واضطرنى إلى ذلك قلة الشواهد فيه(٣) .

ابن منقذ :

وتأثر أسامة بن منقذ المولود سنة ٤٤٨ هـ فى كتابه « البديع فى نقد الشعر » بابن المعتز وصرح بذلك فى مقدمة كتابه فقال : هذا كتاب جمعت فيه ما تفرق فى كتب العلماء المتقدمين المصنفة فى نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ، فلهم فضيلة الابتداع ، ولى فضيلة الاتباع ، والذى وقفت عليه ، كتاب « البديع » لابن المعتز ، وكتاب « الحالى » للحاتمى(٤) .

وبالمقارنة بين الأبواب المتشابهة فى الكتابين نرى شـــواهد « ابن المعتز » تطل زاهية فى كتاب « ابن منقذ » ، مما يدل على الاستفادة والتأثر .

---

(١) السابق : ٢/٤٥

(٢) السابق : ٢/٤٨

(٣) السابق ٢/٤٨

(٤) البديع فى نقد الشعر : ٨

ابن أبى الإصبع :

أما زكى الدين عبد العظيم بن الواحد المعروف بابن أبى الإصبع المصرى، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ.

فقد تأثر فى كتابيه « تحرير التحبير » و « بديع القرآن » إلى درجة كبيرة ببديع ابن المعتز وقد جعله إمام البديع ، وصرح بأن كتابه من المصادر التى اعتمد عليها(١) .

وسمى الأبواب التى وردت فى كتابى «ابن المعتز» و «قدامة الأبواب الأصول(٢) .

وبدأ كتابيه بذكر أبواب «ابن المعتز»، ولما فرغ منها أخذ فى ذكر الأبواب التى أضافها « قدامة »(٣) .

هذا ، وقد ظل المتأخرون من البلاغيين ، ينهلون من معين «ابن المعتز» الفياض بالشواهد الأدبية ، فيسوقون أمثلته ، ويرددون شواهده فى مؤلفاتهم .

ومن كل ماقدمناه نرى أن كتاب « البديع » أثر تأثيراً كبيراً فى الدراسات البيانية ، وظل مصدراً هاماً للمؤلفين فى علوم البلاغة(٤) ، ومن هنا كانت قيمة هذا الكتاب جليلة ، ومكانته لا ينكرها باحث .

---

(١) ينظر بديع القرآن : ٥

(٢) السابق : ١١٤

(٣) السابق : ٦٤

(٤) ينظر علم البديع والبلاغة عند العرب : ٣١

قيمة كتاب البديع :

بعد أن رأينا أثر كتاب « البديع » واطلعنا على تأثر البيانيين به ، فإننا نستطيع بيسر أن نعرف قيمته ، ومكانته فى تاريخ البيان العربى .

فهو أول مؤلف فى البيان العربى على هذا النحو المنظم ، درس فيه « ابن المعتز » عناصر الجمال فى الأسلوب العربى ، وجمع فيه محاسن الكلام التى ازدان بها كلام الفحول ، وترجع قيمة كتاب « البديع » إلى ناحيتين(١).

الناحية البلاغية ، وذلك أنه أول كتاب ألف فى البلاغة العربية على نحو منظم مفصل ، دون تشويش أو خروج عن موضوع التأليف .

والناحية النقدية : وذلك أنه أول كتاب تناول الأدب تناولا فنياً ، وشرح بعض عناصر الحسن فيه ، وبه انتقل النقد إلى طور جديد ، هو طور العناية بالصورة وقد كان الجهد كله موجهاً إلى نقد المعانى والإشادة بقوتها وفخامتها .

وقد كشف « ابن المعتز » بهذا الكتاب عن ميزات المذهب الجديد فى الأدب وهو مذهب البديع ، وحدد خصائصه(٢) ، ودعا أصحابه إلى التزام التوسط فيه والاعتدال فى استعماله اقتداء بالقدماء الذين كانت تجرى هذه الفنون على ألسنتهم من غير تعمل ، أو تكلف .

ويحاول بعض الباحثين أن يقلل من قيمة كتاب « البديع » بدعوى أن

---

(١) قدامة والنقد الأدبى : ٣٦

(٢) ينظر النقد المنهجى : ٦٠

الفنون التى تحدث عنها قد ذكرها العلماء السابقون ، ولم يكن لابن المعتز من فضل غير تخليص الأسماء والتعريفات تخليصاً جنى على تلك الفنون ودمغها بالشكلية، ووجههم علماء البلاغة إلى ظاهر الدراسة الأدبية، فتركوا اللب، وأعجبوا بالجزئيات ، وأغرموا بالتزيد فى الأسماء(١) .

وهذا الكلام يشتمل على قضيتين :

الأولى : أن فضل «ابن المعتز» ليس إلا فى تخليص الأسماء والتعريفات .

والثانية : أنه بجمعه لهذه الفنون قد جنى على الدراسات البلاغية ووجهها إلى الشكلية والاهتمام بالجزئيات . . .

وهذا الكلام مردود عليه بأمور :

١ — أن «ابن المعتز» لم يقف عند الفنون التى ذكرها السابقون ولكنه أضاف فنونا جديدة لم يسبق إليها ومنها : رد الأعجاز على ماتقدمها ، والاعتراض ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وتجاهل العارف ، والهزل الذى يراد به الجد ، وغيرها .

٢ — أنه لو لم يكن له إلا تخليص الأسماء والتعريفات كما زعموا لكفاه لأنه من المعلوم أن العلوم لا تتقدم ولا تنهض إلا بعد تحديد مصطلحاتها وتعريفاتها ، ولو ظلت المصطلحات غير محدودة لما تقدم البيان العربى .

٣ — أن جمع ابن المعتز لهذه الفنون لا يؤخذ منه اهتمامه بالشكل ، ولا يحمله وزر الاهتمام بالجزئيات ، والتزيد من الأسماء ، لأنه فى جمعه لهذه الفنون قد اهتم بالمضمون وأكبر دليل على ذلك تحدثه عن المعيب وإشارته إلى القبيح ، إذ أن العيب فى استعمال هذه الفنون يأتى من الاهتمام بالشكل دون المضمون .

---

(١) أثر القرآن فى تطور النقد العربى ٢٢٤ ، ومفهوم الاستعارة : ٥٢

ومنهج «ابن المعتز» فى دراسة هذه الفنون منهج ذوقى يقوم على عرض الأمثلة ، وسوق الشواهد الكثيرة مما يساعد على تربية الملكات الأدبية ، وتنمية الحاسة النقدية ، وهذا من أهم أهداف دراسة علوم البلاغة .

وبعد : فإن الحقائق تنطق بأن لكتاب «البديع» قيمة كبيرة فى تاريخ البيان العربى ، بمنهجة الذى رسمه لدراسة فنون البلاغة، وبتوجيهه الأذهان للبحث المنظم فى الدراسات البلاغية ، وهذا ما جعل أثره قوياً مشاهداً فى جل كتب البيان العربى على مر العصور .

وبهذا نصل إلى نهاية بحثنا عن كتاب البديع وأثره فى الدراسات البيانية، ضارعين إلى الله عز وجل أن يسدد خطانا ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

دكتور / الشحات محمد عبد الرحمن أبو ستيت
مدرس البلاغة والنقد